

## الفصل الأول

في

### أصل الجاحظ ونسبه وجنسه ولقبه

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة ، اللبني الكناني ، وقد زعم بعض الرواة أنه كان مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الفقيمي النساء . وكان إلى هذه الأسرة نس . المشهور في الجاهلية <sup>(١)</sup> وكان القلمس

(١) كان أول من نسا المشهور على العرب في الجاهلية ، فأحل لهم منها ما أحل ، وحرّم عليهم منها ما حرّم « القلمس » وهو حذيفة بن عبد بن ققيم الكناني . ثم قام من بعده على ذلك ولده « عباد » بن حذيفة . ثم قام على أثره ولده « قلع » بن عباد ، ثم « أمية » بن قلع ، ولعله هو المسمى في الأصل عمرو بن قلع وكان يكنى بأبي القلمس . ثم « عوف » بن أمية . ثم « أبو ثمامة جنادة » بن عوف . وهو آخرهم في هذا الشأن . وعليه قام الاسلام . ويروى أن أبا ثمامة جنادة بن عوف أسلم وحضر الحج في زمن عمر فرأى الناس يزدحمون على الحجر الأسود فتنادى : أيها الناس إني قد أجرته منكم ! فخفقه عمر بالدرة وقال له : ويحك ، إن الله قد أبطل أمر الجاهلية ؟ . وكان الواحد من هؤلاء النساء يقف في الموسم قبل الاسلام عند جرة العقبة وحواله قبائل العرب ويقول : اللهم إني ناسي المشهور وواضعها مواضعها . لا أعاب ولا أحاب ، اللهم إني قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر ( يعني محرم وصفر ) وكذلك في الرجيين ( يعني رجب وشعبان ) إنفروا على اسم الله . وقد أشير إلى هذا الحدث في القرآن الكريم « إنما النسي . زيادة في الكفر . يضل به الذين كفروا يحلونّه عاماً ويحرّمونه عاماً » والنسي . في اللغة التأخير

من حكام العرب وذوى الرأى فيهم والرُّجحان عندهم . وكان يَحْلُلُ من الشهور ما يشاء فتنحل ، ويحرم منها ما يريد فتحرم . كذلك كان بنوه من بعده . وما كان في العرب من يقف لأحد منهم في هذا الشأن ، أو يخالفه فيه .

ففي هذه الأسرة الماجدة نشأ أصل الجاحظ وتوشجت أعرافه ، وإليها كان انتماءه واتمائه وآبائه وأجداده . ولعل أول من عرف منهم فزارة الذى قيل إنه كان جمالا لأحدر وسها . قال يموتُ بنُ المُزَرَّعِ (١) — وكان الجاحظ خال أمه ، لا كما قيل من أنه كان خاله — : كان فزارة جد الجاحظ أسود ، وكان جمالا لعمر بن قلع الكنانى .

ومن هنا قد يتطرق الشك إلى الأذهان في عربية الجاحظ وأسرته وخصوصاً لما زعمه بعض الرواة من ولائه لأبى القلمس الكنانى — ويفتح باب التظنى في جنسيته : فيلججه عليه الشعوبى ومقلده ممن لا يرون للعرب فضيلة يتأزرون بها على غيرهم من الأمم . وقد يعرض هذا السؤال : هل كانت أسرة الجاحظ عربية سامية ، أم كانت من العناصر الأفريقية التى تداخلت في العنصر العربى بعامل الجوار وما يستتبعه ؟ وهل وقع على أحد من أسلافها الرق أو الإيسار ، أم تناسلت على الحرية السليمة من الشوائب والأكدار ؟

أما جوابى على هذا فهو : إن السواد لا يصح أن يؤخذ دليلا على نقي العروبة فقد كان هذا اللون شائعا في العرب . بل ربما عد مما كانت تفخر به ،

(١) هو أبو بكر محمد بن موسى بن سيار العبسى البصرى . غلب عليه اسم « يموت بن الزرع » وبهذا الاسم اشتهر . كان الجاحظ خال أمه . وكان من مشايخ العلم والآدب ، قيما بالأخبار ، حسن الشعر . أخذ عن الجاحظ . وأبى عثمان المازنى وغيرهما . دخل بغداد ثم قدم مصر سنة ٣٠٣ هـ ثم ذهب إلى دمشق وبها كانت وفاته سنة ٣٠٤ هـ .

رَكْبِيًّا مَا كَانَتْ تُعْجَبُ بِهِ وَتُؤَثِّرُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْأَلْوَانِ الْآخَرَ ، وَتَصْفَهُ  
الْحَضْرَةَ ، وَتَنْعَتِ الْحَضْرَةَ بِهِ . وَمِنْ مَذْكُورِي السُّودِ فِيهِمْ ، الْأَغْرَبِيُّ ، وَهُمْ :  
عَنْتَرَةُ (١) وَخُفَّافُ بْنُ نُذَيْبَةَ (٢) وَأَبُو عُمَيْرِ بْنِ الْحَبَابِ (٣) وَالسُّلَيْكُ  
بِْنِ السُّلَيْكَةِ (٤) وَهَشَامُ بْنُ عُقْبَةَ (٥) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمِ (٦) وَعُمَيْرُ  
بِْنِ أَبِي عُمَيْرٍ ، وَهَمَّامُ بْنُ مُطَرِّفٍ (٧) وَمُنْتَشِرُ بْنُ وَهْبٍ (٨)

(١) هُوَ عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَادِ الْعَبْسِيِّ الْفَارِسِيِّ الشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ ، كَانَتْ أُمُّهُ أُمَّةٌ  
حَبَشِيَّةٌ تَدْعَى زَيْبَةَ مَاتَ سَنَةَ ٦١٥ م

(٢) هُوَ أَبُو خِرَاشَةَ خُفَّافُ بْنُ عُمَيْرِ السُّلَيْمِيِّ . كَانَتْ أُمُّهُ نَذْبَةُ عَرَبِيَّةٌ إِلَّا  
بِهَا كَانَتْ سَبِيَّةً ، وَإِلَيْهَا كَانَ يَنْسَبُ . وَكَانَ فَارِسًا شَاعِرًا بَعِيدَ الذِّكْرِ . أَسْلَمَ  
يَشْهَدُ حَنِينًا وَالْفَتْحَ وَكَانَ إِلَيْهِ لُؤَاءُ بَنِي سَلِيمٍ . وَهُوَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ . مَاتَ  
فِي خِلَافَةِ عُمَرَ

(٣) هُوَ أَبُو عُمَيْرِ بْنِ الْحَبَابِ . كَانَ فَارِسًا مَغْوَرًا وَشَاعِرًا خَلَّاهُ . وَكَانَ  
مِنْ رِجَالِ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ . أَغَارَ عَلَى قِبَائِلِ كَلْبٍ وَأَنْكَبَ فِيهَا ثُمَّ قَتَلَهُ تَغْلِبُ  
رِثَارَ لَهُ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ

(٤) هُوَ السُّلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ . كَانَ مِنْ مَغَاوِرِ الشُّجْعَانِ وَمِنْ فُجُولِ الْعَدَائِيِّينَ  
لَّذِينَ يَسْبِقُونَ الْخَيْلَ عَدُوًّا . قَتَلَهُ أَنْسُ بْنُ مَدْرِكُ الْخَثْعَمِيِّ

(٥) هُوَ هَشَامُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعِيْطٍ . وَوَلَاهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى  
أَعْمَالِ قَنْسَرِينَ

(٦) هُوَ أَبُو صَالِحِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَازِمِ السُّلَيْمِيِّ . كَانَ مِنَ الْأَبْطَالِ  
الشُّجْعَانِ . فَتَحَ الْفَتْوحَاتِ الْجَلِيلَةَ وَوَلِيَ الْأَعْمَالَ الْعَظِيمَةَ لِبَنِي أُمِيَّةٍ . وَوَلِيَ خِرَاسَانَ  
عَشْرِينَ سَنَةً وَفَتَحَ الطَّبْسِينَ ثُمَّ تَارَ بِهِ جَنْدَ خِرَاسَانَ مِنَ الْعَرَبِ بِقِيَادَةِ وَكَيْعِ بْنِ  
الدُّورِقِيَّةِ نَحْرَ صَرِيْعًا فِي الْمَعْرَكَةِ سَنَةَ ٦٧٥ هـ ٥٦ م

(٧) هُوَ هَمَّامُ بْنُ مُطَرِّفِ الْعَقِيلِيِّ . كَانَ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي عَامِرٍ أَيَّامَ كَانِ  
مُرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَالْيَا عَلَى الْمَدِينَةِ مِنْ قَبْلِ مَعَاوِيَةَ

(٨) هُوَ مُنْتَشِرُ بْنُ وَهْبِ أَخُو أَعْشَى بَاهِلَةَ . كَانَ فَارِسًا شَجَاعًا صَاحِبَ غَارَاتٍ  
فِي الْجَاهِلِيَّةِ . قَتَلَهُ هَنْدُ بْنُ أَسْمَاءِ الْفَزَارِيِّ . وَوَلَّى أَعْشَى فِيهِ مَرْتَبَةَ مِنْ أَبْلِغِ الْمُرَاتِي

ومَطَرُ بن أَوْفَى (١) وتَأْبَطُ شَرًّا (٢) والشَّنْفَرَى (٣) وحَاجِزُ (٤) — وإنما لقبوا بالأغربة لأن أمهاتهم كُنَّ إماء — فسواد فزارة جد الجاحظ لا يعد دليلاً على نفي العروبة عنه . وأما الرق فلم يرد عن أحد من الرواة والنسابين وأصحاب الأخبار أنه وقع على أحد من أجداده . وكذلك الإسار، فإنه لم يُصَبْ أحداً منهم . ولا عبرة بوصفهم بالولاء لآل ققيم ، فليس الوصف بالولاء مما ينفي الحرية ، فالولى عند العرب : المحب ، والصديق ، والنصير ، والمولى ، والعبد ، والمعْتَق ، والمعْتَق ، والصاحب ، والقريب — كالم ، وابن العم ، والإبن ، وابن الأخت — والحليف ، والنزيل ، والشريك ، والولى ، والرب ، والناصر ، والمنعم ، والمنعم عليه ، والتابع ، والصحبر . وقد تكون قبيلة عربية صريحة النسب مولاة لقبيلة أخرى عربية

وأما قيام فزارة على إبل عمرو بن قلع، فهذا إن دل على شيء فليس يدل إلا على أنه كان يحسن القيام عليها ، ولهذا استكفاه مولاة عظيماً من أمره . نعم إن الجاحظ قد ذكر في كتابه « الحيوان ١٣٤ ج ٣ » أن أصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للابل ، يرون أنهم يصلحون على معاشها وتصلح على قيامهم عليها . ولكن ذلك لم يكن عاماً في سائر

(١) هو مطر بن أوفى . كان شجاعاً أبداً ذا بأس وقوة

(٢) هو ثابت بن جابر . تأبط شراً . كان من أشجع العدائين صاحب

غارات ونكيات في أحياء العرب . وكان أبو كبير الهذلي زوج أمه وله فيه شعر

(٣) هو الشنفرى الأزدي . كان شجاعاً بطلاً ذا غارات . وكان من أشهر

العدائين . وهو شاعر مشهور له لامية العرب

(٤) هو حاجز بن عوف الأزدي . شاعر جاهلي مقل . وهو أحد

العدائين المغاوير

العرب ، وما هي إلا رغبة إن حصل عليها بعضهم ، فليس في الإمكان أن يبلغها كلهم . وقد كان في مقدور الجاحظ أن يشير في هذا المقام إلى عنصر جده ، إن كان به دم يمت بشبهة نسب إلى أحد هاتيك العناصر الثلاثة . والجاحظ أحكم من أن يبرأ من أصله ، وأعقل من أن يغير جنسه . وأخرى فلو كان في دم الجاحظ شيء ، قليل أو كثير ، من دم الأجناس غير العربية لرأيناه في رأس الشعوبية الذين لا يرون للعرب شيئاً ولا يعترفون لهم بفضل ، وهاهو أستاذه أبو عبيدة معمر بن المثنى <sup>(١)</sup> كان رأساً في الشعوبية . ولكننا نرى الجاحظ في كتبه وفي كل ما روى عنه ، شديد العصبية للعرب ، لا يرى فضيلة في أمة إلا ويرى أكبر منها لهم . لا بل هو لا يرى أمة من أمم الأرض تفضل الأمة العربية بأي خصلة من خصال الخير والنبل ، وما من مزية من مزايا الانسانية ، إلا والعرب أسبق الأمم إليها وأخصم بها . — ومع هذا كله فقد قطع المحققون بأن الجاحظ كان كنانياً صليبية ، يعني

أنه كان خالص النسب ، عريق الأصل في العرب . ومن قرر ذلك أبو القاسم البلخي <sup>(٢)</sup> وابن حزم <sup>(٣)</sup> إذا فهو عربي ، من سلالة عربية ، نشأ في بيت

(١) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان مولى لثم قريش . وكان عظيم الدراية واسع الرواية إخبارياً نساباً عالماً بأحوال العرب . وكان شعوبياً وضع كتاباً في مثالب العرب . وكان يرى رأي الخوارج . عاش حوالي مائتي عام فيما قيل . ومات سنة ٢١١ هـ

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود الكعبي البلخي . كان من أكابر المتكلمين ومن رؤس المعتزلة . انفرد بمقالات خاصة تابعه عليها قوم فلقبوا بالكعبية ، وله كتاب في تاريخ المعتزلة . توفي سنة ٣١٧ هـ

(٣) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم . فارسي الأصل أندلسي الميلاذ والنشأة . صاحب التصانيف الكثير في الحديث والفقهاء والجدل . ومن أشهر مصنفاته كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل ، وله بقرطبة في رمضان

سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٤٥٦ هـ

من أجل بيوتات العرب ومن أعرقها في المجد والشرف .  
 أما لقبه والجاحظ فقد جاءه من قبل أنه كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين .  
 أي بارزها . وربما لقب « بالخدق » أيضا ، لأنه كان ناتق الخدقين .  
 وليس هذا مما يعيبه مع علمه وفضله وبارع أدبه . فكثير من العظماء كان مشوه  
 أو أكثر منه دمامة وتشويها . فهذا سقراط <sup>(١)</sup> شيخ الفلاسفة الأقدمين ،  
 قد كان مشوه الخلق ، جاحظ العينين ، أفتس الأنف ، ضخم الشفتين .  
 وبالجاحظ بعض هذه العيوب . ومع هذا فقد عدل به عن اسمه الأصلي  
 « عمرو » وعن كنيته « أبي عثمان » واشتهر بهذا اللقب المنتزع من أقبح شيء  
 في خلقه .

والظاهر أن الجاحظ كان لا يعجبه أن يدعى بهذا اللقب ، وكان يتبرم  
 بمن يدعوه به . ولهذا كان يجهد نفسه في أن يقرر في أذهان الناس أن اسمه  
 « عمرو » وأنه يجب أن يدعى بهذا الاسم ، وأن اسم « عمرو » أرشق الأسماء  
 وأخفها وأظرفها وأسهلها مخرجا . وكان يسميه « الاسم المنظوم » لأنهم الرقوا به  
 الواو التي ليست من جنسه ولا فيه دليل عليها ولا إشارة إليها . وكان يقول :  
 إن هذا الاسم لم يقع في الجاهلية والاسلام إلا على فارس مذكور ، أو ملك

(١) هو سقراط فيلسوف اليونان القدماء كان أبوه نجاتا وأمه قابلة .  
 وكان ذا مواهب فاضلة سميت به إلى ذروة المجد النفسى . لم يؤلف كتابا ولم  
 يضع مصنفا ، بل سرت تعاليمه من نفوس تلاميذه مسرى الكهرباء ، فخلد فيهم  
 مجده ، وعنه انتشرت فلسفته . ولد بأثينا سنة ٤٦٩ قبل الميلاد ، وكانت  
 وفاته بالسقم بحكم القضاء الحاطي سنة ٣٩٧ قبل الميلاد

مشهور، أو سيد مطاع، أو رئيس متبوع. أمثال: عمرو بن هاشم<sup>(١)</sup>  
 وعمرو بن سعيد الأكبر<sup>(٢)</sup> وعمرو بن سعيد الأشدق<sup>(٣)</sup> وعمرو بن  
 العاص<sup>(٤)</sup> وعمرو بن حمزة<sup>(٥)</sup> وعمرو بن يحيى بن قُمئة، وعمرو بن  
 معديكرب<sup>(٦)</sup> وعمرو بن عبدود<sup>(٧)</sup> وعمرو بن الشريد<sup>(٨)</sup> وعمرو

(١) هو عمرو بن عبد مناف، وهو طائفة جد النبي عليه الصلاة والسلام.  
 وقد مات بعزم من أرض فلسطين حين ورد إليها في تجارتها، وبه سميت غزوة هاشم.  
 (٢) هو عمرو بن سعيد بن العاص: كلف من أكابر وجالات بني أمية،  
 وكان من مهاجرة الحبشة. قتل بأجنادين بالشام في خلافة أبي بكر سنة ١٣ هـ.  
 (٣) هو عمرو بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص. وقد لقبه معاوية  
 بالأشدق حين رآه على صخرة فصيحا بينا. كان من لحول بني أمية وعظماهم.  
 وكان ينازع عبد الملك بن مروان الخلافة فاعتاله عبد الملك وتخلص منه  
 سنة ٧٠ هـ.

(٤) هو الأمير عمرو بن العاص الفاتح العظيم والسياسي المحنك والذاهية النهاية.  
 فتح مصر ونهر جيوش الروم. وعاون معاوية على علي في حروبه. وتوفي بمصر  
 سنة ٥٦ هـ ودفن بجبل المقطم في ناحية الفتح وكانت طريق الناس إلى الحجاز  
 (٥) هو عمرو بن حمزة الدوسي. كان في أول أمره شجاعا باسلا، ثم  
 صار سيد قومه. ثم هو أحد من كانت تتحارب إليه العرب. وفي رواية ابن  
 عباس أنه قضى بين العرب ثلاث مائة سنة. وهو أول من حكم في الحثي  
 باتباع المبال. وفي بعض الروايات أنه وقد على النبي صلى الله عليه وسلم. وما  
 مات وثمة الشعراء تراث جيدة

(٦) هو عمرو بن معدى كرب: البطل القدام ذو الغارات والمعارك  
 في الجاهلية والاسلام توفي بعد فتح نهاوند سنة ٦٠ هـ.  
 (٧) هو عمرو بن عبدود: رأس الأحزاب وقائدها. قتل على بن أبي طالب  
 يوم الخندق.

(٨) هو عمرو بن الشريد: والد الخنساء وكانت من سادات العرب  
 وشجعانهم الأبطال

ابن الحقيق<sup>(١)</sup> وعمرو بن عبيد<sup>(٢)</sup> وعمرو بن قائد<sup>(٣)</sup>

واعلم الجاحظ كان يريد أن يقول في إثر ذلك : فلم لا يدعوني الناس « عمرو بن بحر » بدل هذا اللقب البغيض ... ؟ وله الحق في ذلك . فما من انسان كائنا من كان إلا وهو يبغض من يدعوه بلقب ، ولا سيما إذا كان هذا اللقب يشير إلى عيب في صاحبه إن خلقا وإن خلقا

ووعلم الجاحظ أن لقبه هذا سيكون فيما بعد عصره نعتا من أجل النعوت ، وأنه سيكون صفة من أشرف الصفات التي عمل الكثيرون من عطاء الرجال وأكابر الرؤساء ، وخواص أهل الفضل ، على أن يكون لهم شرف الانتساب إليه ، ومجد الانتصاف به - لسره من لقبه أكثر مما أعجبه من اسمه . فقد أصبح هذا اللقب شعار مدرسة جامعة ، ودليلا على التبحر في العلوم والتوسع في الآداب والتفوق في فنون البلاغة وصنوف البيان . فهذا أبو زيد أحمد بن سهل البلخي<sup>(٤)</sup> ، وناهيك به من فيلسوف حكيم ، كان ينعت « بمحافظ

(١) هو عمرو بن الحق : من خزاعة ، أسلم بعد الحديبية وله صحبة . وكان من شيعة علي ، ذا بأس وشدة . أقام بالشام ثم بالكوفة ثم قدم مصر . جاوز الثمانين من عمره ، ثم قتل يوم الحرة سنة ٦٣ هـ وحمل رأسه الى معاوية وهو أول رأس حمل في الاسلام من بلد إلى بلد

(٢) هو عمرو بن عبيد بن باب الزاهد العابد الناسك شيخ المعتزلة واما هم . وقد كتبنا له ترجمة ملخصة ونشرناها في جريدة السياسة الأسبوعية وسترى له ترجمة مستفيضة في كتابنا « شيوخ المعتزلة ومذاهبهم » الذي سنشره بالطبع قريبا . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٤ هـ

(٣) هو أبو علي عمرو بن قائد الأسواري . أخذ عن أبي الهذيل العلاف ثم عن أبي اسحق النظام . وكان رأس فرقة من المعتزلة . وله آراء ومقالات خاصة

(٤) هو أبو زيد البلخي . راجع ما كتبناه عنه في كتاب المقابسات ص ١٤٨

خراسان « وهذا أبو الفضل ابن العميد <sup>(١)</sup> ، وشرعك من وزير عليم كان يرتاح الى من يصفه « بالجاحظ الثاني » وهذا أبو حيان التوحيدى <sup>(٢)</sup> وهما من كاتب بليغ ، كان ينازع ابن العميد صفة « الجاحظ الثاني » وهذا محمود بن عزيز <sup>(٣)</sup> ، وحديثك من عالم جليل ، كان ينعى « بالجاحظ الثاني » وهذا أبو محمد الحسن بن خلاد القاضي الرامهرمزى <sup>(٤)</sup> . قال عنه ابن النديم انه كان حسن التأليف ، مليح التصنيف يسلك طريقة الجاحظ . وذكر له عدة مؤلفات . وهذا أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى <sup>(٥)</sup> . قال عنه ابن النديم : إنه مليح التصنيف ، جيد التأليف . يتعاطى مذهب الجاحظ فيما يعمل من الكتب . وذكر له عدة مصنفات . وهناك غيره هؤلاء ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم كلهم كان يود بجدع الأنف الانتساب في المعارف والآداب والبلاغة والبيان إلى الجاحظية الأدبية . فاسم الجاحظ عنوان على مدرسة جامعة في فنون العلوم وحنوف الآداب وأركان البلاغات

- (١) هو أبو الفضل بن العميد راجع ما كتبناه عنه في كتاب المقابسات ص ٦١
- (٢) هو أبو حيان التوحيدى : راجع ما كتبناه عنه في أول كتاب المقابسات
- (٣) هو أبو القاسم شمس المشرق محمود بن عزيز العارضى الخوارزمى . كان من أفاضل الناس في عصره جمع بين الأدب واللغة والمنطق والفلسفة والفقه والنظر والخلاف والحديث . وكان كاتباً بليغاً ذا اقتنان . وكان في خدمة خوارزم شاه مكرماً مبعجلاً . ثم فارقه إلى مرو . وكان الزمخشري من المعجبين بفضله وسعة معارفه وكان يدعوه « الجاحظ الثاني » لكثرة حفظه وفصاحة لفظه . احتقر الدنيا ومل الحياة فذبح نفسه بيده سنة ٥٣١ هـ ووجد بخطه رقعة فيها هذا ما عملته أيدينا فلا يؤاخذ به غيرنا .
- (٤) هو القاضي أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد . وكان مع قيامه بشؤون القضاء يضرب بسهم نافذ في الآداب وله شعر حسن وشر جيد . مات في حدود سنة ٣٦٠ هـ
- (٥) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى صاحب كتاب الموازنة بين الطائين كان جيد الفهم حسن الدراية يارع الآداب . مات سنة ٣٧١ هـ

## الفصل الثاني

في

تحقيق مولده ومنشأه ، وهل كان محدثا؟

للرواة والمؤرخين خلاف في مولد الجاحظ ، فمنهم من زعم أنه ولد في سنة ١٥٩ هـ ، ومنهم من يرى غير ذلك ، لكن الذي لا يصح أن يشك في صدقه أو يرتاب في صوابه ، ما قرره هو عن نفسه ، ونقله الينا ياقوت<sup>(١)</sup> في معجمه

(١) هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي . أسر صغيراً من بلاده وابتاعه رجل من تجار بغداد فعلمه وثقفه ورباه ودربه على التجارة فكان كثير الأسفار ، طوفاً في الأمصار ، معنياً بطلب التجارة والكسب وبعد أن مات سيده استقل بالعمل وحده وأضاف إلى أعماله الاتجار بالكتب . وكان كثير المطالعة مشغولاً بها . ومن أشهر مؤلفاته كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» المعروف بـ «معجم الأديب» وقد كان مطموراً في زوايا المسكاتب فعثر على بعضه العالم المستشرق الانجليزي الجليل المستر مرجليوث ونشر منه أجزاء بالطبع جزاءه الله خيراً . وله كتاب «معجم البلدان» طبع في أوربا منذ زمن وأعيد طبعه في مصر سنة ١٩٠٦ وألحقه طابعه أمين أفندي الخانجي بمستدرك أسماه «منجم العمران» . وله غير هذين كتب كثيرة غير معروف إلى الآن عنها شيء . وكان مولده ببلاد الروم سنة ٤٥٥ هـ وتوفي

فقد روى أنه قال : أنا أسن من أبي نواس<sup>(١)</sup> بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ ( ٧٦٧ م ) وولد في آخرها . . . وليس بعد هذا نص يعتد به في هذا الشأن ومن الغريب أن ابن خلكان<sup>(٢)</sup> يروي في كتابه عن أبي بكر الخطيب البغدادي<sup>(٣)</sup> أنه ذكر أبا نواس في تاريخه الذي وضعه لبغداد وقال : إن ميلاده ( يعني أبا نواس ) كان في سنة ١٤٦ . وهذا لا يصح الأخذ به أو الاعتماد عليه بعد نص الجاحظ عن نفسه وعنه

وقد كان ميلاد الجاحظ بالبصرة في ذلك التاريخ ، وقد مضى على تأسيسها ١٣٦ سنة ، فقد أسسها الأمير عتبة بن غزوان<sup>(٤)</sup> بأمر الخليفة عمر

( ١ ) هو الحسن بن هانيء الحكيم الشاعر الأشهر المعروف بأبي نواس ولد سنة ١٥٠ وتوفي سنة ١٩٨ وهو أشهر من أن يعرف هنا  
( ٢ ) هو القاضي أبو العباس شمس الدين أحمد بن إبراهيم المعروف بابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهو كتاب شهدت شهادة عدل أن مؤلفه كان من أكابر الأدباء وأفاضل الكتاب وفحول البلغاء ولي التدريس والقضاء بمصر والشام منّا . وكان على جلالة قدره ميالا إلى اللهو والمجون وكان مولده بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ وتوفي بدمشق ودفن بسفح قاسيون سنة ٦٨١ هـ

( ٣ ) هو أبو بكر أحمد بن علي البغدادي الخطيب الحافظ المؤرخ الشهير كان من الحفاظ المتفنين والعلماء المتجربين ، وكان واسع الاطلاع إلى الغاية التي لا ترام . وله كتاب تاريخ بغداد وقد شرع في طبعه بمصر الآن ولد في بغداد سنة ٣٩٢ هـ وتوفي سنة ٤٦٣ هـ

( ٤ ) هو عتبة بن غزوان بن الحارث المازني . صحابي من المهاجرين الأولين هاجر إلى المدينة وهو في سن الأربعين . وكان رجلا طوالا شجاعا جيد

ابن الخطاب<sup>(١)</sup> في سنة ١٤ هـ . وبعد أن مضى على تأسيس الكوفة ١٣٣ سنة ، فقد أسسها الأمير سعد بن أبي وقاص<sup>(٢)</sup> بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب في سنة ١٧ هـ . وبعد أن مضى على إنشاء بغداد أربع سنين ، فقد وضع أبو جعفر المنصور<sup>(٣)</sup> ثانی الخلفاء العباسيين قواعدها في سنة ١٤٦ هـ

الرمایة . شهد بدرًا ، وفتح الابله ، واختط البصرة وبنى مسجدها في عهد عمر ابن الخطاب . توفي في طريق مكة سنة ١٧ هـ

(١) هو الامام العظيم عمر بن الخطاب الذي أعز الله به الاسلام، ووقفه الى الفتوحات الجسام ، وشد أركان مائة بالعدل والانصاف ، وباعد بينه وبين الجور والاعتساف . واسنا نحاول هنا ترجمته فهذا شيء فوق المرام ، كانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال . طعنه الفاتك فيروز أبو لؤلؤه غلام المغيرة بن شعبة سنة ٢٣ هـ فمات عن خمس وخمسين سنة

(٢) هو القائد الباسل العظيم سعد بن مالك بن أهيب بن أبي وقاص منزله أركان دولة الالكاسرة وصاحب الفتوحات العظيمة مات في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة وذلك في سنة ٥٥ هـ وقد ناهز السبعين من عمره

(٣) هو الخليفة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، أبو جعفر المنصور كان مولده بالشراة سنة ٩٥ هـ وبويع له بالخلافة بالانبار يوم مات أخوه أبو العباس سنة ١٤٦ هـ وهو الذي مهد الخلافة العباسية بحزمه وعزيمة ويقظته . قال محمد بن علي العبدى الخراساني الاخبارى في وصفه : كان والله أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبد المطلب وبين آل أبي طالب ، وقد كان قبل ذلك أمرهم واحداً ، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم وكان معه نوبخت المجوسى المنجم وأسلم على يديه — وهو أبو هؤلاء النوبختية — وابراهيم الفزارى المنجم صاحب القصيدة في النجوم وغير ذلك من علوم النجوم وهيئة الفلك ، وعلى بن عيسى الأسطرلابى المنجم . وهو أول خليفة

إذاً ولد الجاحظ والمصران - البصرة والكوفة - يعُتَبَانِ بعمرائهما ،  
 ويزخرآن بوسائل الحياة فيهما ، ويتنافسان في صنوف العلوم وضروب  
 العرفان ، ويتباريان في ميادين الفنون وحلقات الآداب ، ويدلان على سائر  
 الأعمار الإسلامية بما خرجت حلقاتهما من رجال كانوا عدة اللغة العربية ،  
 وأسناد آدابها ، وينابيع علومها ، ومذاخر فنونها ، وشموس معارفها . أما  
 بغداد فقد كانت إذ ذاك لا تزال في مهد الطفولة ، ولم يكن عمراتها قد استبحر  
 ولم يكن عرفانها متسع النطاق ممتد الرواق ، إلا أنها كانت ، بعناية مؤسسها  
 وأخلافه العظماء ، سريعة الخطى في ميدان التقدم ، ناهضة في معارج الشرف  
 حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من التفوق في الحضارة وال عمران عالمي مجارها  
 فيه أية مدينة أخرى في العالم القديم

وكانت نشأة الجاحظ بالبصرة ، وظل بها عاكفاً على التعلم والدرس  
 والإطلاع . كما كان مقصود الخائب للاستفادة من مناظراته ، والتفقه بحاضراته

ترجمت له الكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية ، منها كتاب كلية ودمنة  
 وكتاب السند هند ، وترجمت له كتب أرسطاطاليس من المنطقيات وغيرها  
 وترجم له كتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الأرتماطيق وكتاب أقليدس  
 وسائر الكتب القديمة من اليونانية والرومية والقبليوية والفارسية والسريانية  
 وخرجت إلى الناس فنظروا فيها وتعلقوا بها . وفي أيامه وضع محمد بن اسحق  
 كتاب المغازي والسير وأخبار المبتدأ ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة  
 ولا مصنفه ، وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلبانه وصرههم في مهماته  
 وقدمهم على العرب فاتخذ ذلك الخلفاء من بعده من ولده فسقطت وبادت  
 العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها ، وأفضت الخلافة إليه وقد نظرت في العلوم  
 وقرأ المذاهب وارتاض في الآراء ووقف على النحل وكتب الحديث  
 فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم . توفي سنة ١٧٥٣ هـ

وكان كثيراً ما يترك البصرة قاصداً غيرها من المدن الإسلامية المعروفة في ذلك العهد للبحث والاستقراء ولقاء العلماء ثم يعود إليها منعم الوطاب بصنوف العلوم وضروب الآداب . ولما حاوز الحسين من عمره عنت له الرحلة إلى بغداد واتخاذها دار إقامة له ، وذلك في عهد المأمون<sup>(١)</sup> الذي طار بها إلى أوج الرقي والعلاء . وكان دخوله إلى بغداد في سنة ٢٠٤ ، وفي الوقت الذي قدم إليها المأمون فيه . وما هو أن استقر به المقام فيها حتى تصدر للتعليم والمناظرة والتأديب والمحاضرة ، فقصده إليه العلماء ، وأمه الأديب ، وأقبل عليه الطلاب من كل صنف ومن كل جنس ، وعلى اختلاف الملل وتباين النحل . وكان

(١) هو عبد الله المأمون بن هرون الرشيد . كان من العلم والفضل في المقام الأسمى ، بويح له بالخلقة بعد موت أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ قال العبدى : ثم أفضى الأمر إلى المأمون فكان في بدء أمره - لما غلب عليه الفضل بن سهل وغيره - يستعمل النظر في أحكام النجوم وقضاياها ، وينقاد إلى موجباتها ، ويذهب مذاهب من سلف من ملوك ساسان كأزدشير بن بابك ، واجتهد في قراءة الكتب القديمة وأمعن في درسها وواظب على قراءتها ، فافتن في فهمها وبلغ درايتهما ، فلما كان من الفضل بن سهل ذى الرياستين ما اشتهر ، وقدم العراق فانصرف عن ذلك كله وأظهر القول بالتوحيد والوعد والوعيد ( يعني مذهب الاعتزال ) وجالس المتكلمين وقرب إليه كثيراً من الجدلين . والتظارين كمانى الهذيل وأبي إسحق إبراهيم بن سيار النظام وغيرهما ممن واقفهما وخالفهما . وألزم مجلسه الفقهاء وأهل المعرفة من الأديب ، وأقدمهم من الأمصار وأجرى عليهم الأرزاق فرغب الناس في صنعة النظر وتعلوا البحث والجدل ووضع كل فريق منهم كتباً ينصر فيها مذهبه ويؤيد بها قوله . وكان أكثر الناس عفاً وأشدهم احتمالاً وأحسنهم مقدرة وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم للعطايا وأبعدهم من التسفه ، واتبه وزرأوه

يقول : كان القراء<sup>(١)</sup> يجيئني ويشتهي أن يتعلم شيئاً من علم الكلام فليكن له فيه طبع . أى أن القراء لم يكن لديه استعداد لتفهم علم الكلام وكان الظن أن الجاحظ لم يعن بعلم الحديث ، ولم يشغل نفسه بروايته وسنده ، ولكن الواقع أن الحديث كان من العلوم التي اضطلع بشأنها ، وتصدر لأقراءها ، والظاهر أن ذلك قد كان وهو بالبصرة وقبل مغادرتها إلى بغداد ، فقد ذكر الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » أن ممن أسند عنه الحديث أبا بكر بن أبي داود<sup>(٢)</sup> . قال ابن أبي داود : كنت بالبصرة فأثيت منزل الجاحظ فاستأذنت عليه فاطلع على من خوخة فقال : من هذا ؟ فقلت : رجل من أصحاب الحديث ! فقال : ومتى عهدتني أقول بالحشوية ؟ فقلت : إني ابن أبي داود . فقال : مرحباً بك وبأبيك . ونزل يفتح لى وقال : أدخل ، إيش تريد ؟ فقلت : حدثني بحديث ؟ فقال : أكتب . . . عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلى على طنفة . وروى الخطيب عن عبد الله بن سليمان بن الأشعث<sup>(٣)</sup> قال : دخلت على الجاحظ فقلت له :

وأصحابه في فعله وسلوكوا سيئه وذهبوا مذهبه . وكان مع هذا كثير الغزو والفتوح . توفى سنة ٢١٨ هـ

(١) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي النحوي الكوفي الشهير بالقراء وهو أحد أئمة العربية الذين يحتج برواياتهم . وكان ديناً ورعاً يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال . توفى بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ عن ٦٧ سنة

(٢) هو الامام الحافظ الكبير أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان ابن الأشعث السجستاني كان عالماً محدثاً من أكابر العلماء وأهل الحديث سمع ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشيراز ، وله عدة مؤلفات في الفقه والشريعة ونظم القرآن وغير ذلك في العلوم والآداب . توفى سنة ٣١٦ هـ

حدثني؟ فقال: أكتب... عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة

فأنت ترى أن الجاحظ لم يطعن على أهل الحديث ويصفهم بالحشوية إلا عن خبرة صحيحة ومعرفة تامة بحقيقة شأنهم -- إلا من عصم الله منهم -- وقد كان في غمار جاهلهم. وليس معنى هذا أنه كان يصف كل محدث بالحشو ولكنه إنما كان يعني بذلك من كان لا يفرق بينهم بين الفث والسمين من صحاح الأحاديث ومعتلها، وإلا فهذه كتبه حافلة بالكثير من الأحاديث المسندة إلى الرسول صلوات الله عليه



## الفصل الثالث

في

### اساليب التعليم في ذلك العهد ، وكيف تعلم الجاحظ

وقبل أن نعرض عليك كيف تعلم الجاحظ ، نأخذ بيدك وتقف بك على نظم التعليم في تلك العصور وإبان ظهور الجاحظ . فقد رأينا بعد التحرر والتفقد والبحث والاستقراء أن التعليم العام كان متشابه الأعراف ، مماثل الأطراف . فقد كان الرجل يبعث بولده إلى كتاب الحي فيتعلم فيه مبادئ القراءة والكتابة ، ويشدو شيئاً من قواعد النحو والصرف ، ويتناول طرفاً من أصول الحساب ، ثم يستظهر كتاب الله الكريم استظهاراً تاماً مجوداً مرتلاً ؛ وهو في خلال ذلك يتردد مع أترابه على القاص فيسمع منه أحداث الفتوح ، وأبناء المعارك ، وأخبار الأبطال ، ومقاتل الفرسان ، ومفاخرات الشجعان ، وسير الغزاة والفاتحين ، ممزوجاً ذلك بالمواعظ والعبر وإيراد أحوال الصالحين وأطوار الزهاد والنسك والمتقين . وبعد أن يأخذ من كل طرف من هذه المعلومات نصيبه الكافي يولى وجهه شطر حلقات الدرس بالساجد العامة ، والمعاهد الجامعة ، والمدارس الخاصة . فيقوم من حلقة الفقيه إلى حلقة المحدث ، ومن مجلس الفقوى إلى سارية النسابة ، ومن حضرة الإخبارى إلى دارة المتكلم ، ومن معهد المنطقى إلى مجمع الفلسفى ، ومن محفل الأديب إلى قاعة المهندس ، ومن بين يدي المفسر إلى حظيرة الأصولى ، ومن غرفة الراوية إلى بيت

الشاعر ، ومن ديوان الكاتب إلى صاحب النجوم ، ومن الإسطرلابي إلى الجغرافي ، ومن مشهد الموسيقى إلى مقعد المغني ، ومن عند الزمار إلى دكانة الوتار . الصبيان والبنات في ذلك سواء ، وإن كانت الغالبية في الصبيان دون أخواتهم . حتى السجون ، فقد كان لأهلها حظ من التعليم وكان لهم معلمون يدخلون إليهم في أوقات معينة

وما دام الطالب في طريق الطلب فقلما يُعنى له بتوجيه أو إيماء له باعتراض مهما كان خطره في أي درس من هذه الدروس ، أو تقييد له ملاحظة أتي علا شأنها في أحد هاتيك المجالس . إلا من طريق التندر والتفكه ، وإن سلم من التقرير فقلما يسلم من التهكم والتجبية . وهو كما استحکم له علم أو استوى له فن نال إجازته من شيخه ، ومتى حصل على إجازة حتى له التصدر لإقراء علمها على من هم دونه من الطلاب . وكان كثير منهم لا يكتب في بما نال من الاجازات . وما حصل من الشهادات ، بل كانت تنجبه به همته نحو الرحلة إلى الآفاق وإلقاء الشيوخ والتعرف إلى العلماء وعقد مجالس المناظرة والمجادلة معهم ، وتبادل الاجازات فيما بينهم يشهد كل من المتناظرين فيها لقرنه بما أحكم من أبواب المعارف وفنون الآداب التي وقع النقاش فيها

على هذا النظام ، أو ما يشبهه ، تلقى الجاحظ علومه ومعارفه عن شيوخ المصريين وعن أكابر علمائهما وصفوة أهل الفضل من رجالتهما . ومن أخذ عنهم علومه وتلقى معارفه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، (١)

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي الامام اللغوي الثقة الأديب المتفنن البليغ . قال الشافعي : ما عبر أحد عن العرب بمثل عبارة الأصمعي . قال أبو العيناء : توفي الاصمعي بالبصرة وأنا حاضر في سنة ٥٢١٣ هـ . وقد بلغ ثمان وثمانين سنة

وأبو زيد الأنصاري<sup>(١)</sup>، وأبو الحسن الأخفش<sup>(٢)</sup>، وكان صديقه .  
وتخرج في علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبي إسحق النظام<sup>(٣)</sup> .  
ولم يكن يقتصر على ما يتلقى عن شيوخه بل كان يذهب إلى مربد البصرة  
فيلتقى بالأعراب الواردين عليه ويتلقى الفصاحة منهم شفاها .

والمربدُ هذا مكان كان بظاهر البصرة تقد إليه الأعراب من بواديهم  
بالقفر للتجار بالابل والماشية وتبادل السلع والعروض ، كما يلتقى فيه الخطباء  
والشعراء والرواة والنسابون والريجاز وأرباب البلاغة من مختلف القبائل ومتباعد  
الأحياء ، فيعرضون منتجات قرائمهم ، وثمرات فهمهم ، من صنوف البيان  
وألوان التفكير ، على أسمع النقاد ، وجهابذة الكلام ، وصيارفة الألفاظ .  
فكان هذا المربد في الاسلام أشبه بسوق عكاظ وغيره من أسواق الجاهلية  
وحدث الجاظ عن فريق كبير من الثقات وعمد السند ، نخص بالذكر  
منهم القاضي أبا يوسف<sup>(٤)</sup> صاحب أبي حنيفة ، ويزيد بن هارون<sup>(٥)</sup> ،

(١) هو أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري الامام الحجة الثقة

يروى من اللغة والأدب والخبار . والاشعار توفي سنة ٢١٥ هـ

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخش المجاشعي بالولاء . من  
أكابر نخبة البصرة وعلماؤها وكان معتزليا . قال البلخي : أصله من خوارزم  
مات سنة ٢٢١ هـ

(٣) هو أبو اسحق ابراهيم بن سيار بن هاني النظام . أحد شيوخ المعتزلة  
وأوحدهم في الفطنة والذكاء . وكان متكلم شاعرا أديبا بليغ اللسان حاد  
الذهن . ولد بالبصرة سنة ١٨٥ هـ وتوفي سنة ٢٢١ هـ

(٤) هو قاضي القضاة أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري كان  
في أول أمره من أهل الحديث ثم صحب أبا حنيفة وهو الذي أشهر مذهبه  
وقيده وحرره . تولى القضاء ببغداد زمنا ومات سنة ١٨٣ هـ في خلافة الرشيد

(٥) هو أبو خالد يزيد بن هرون مولى بني سليم . كان فقيها محدثا توفي

بواسط سنة ٣٠٦ هـ

والسري بن عبدويه ، والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة وغيرهم  
وعن الجاحظ أخذ خلق كثير نذكر منهم المبرد<sup>(١)</sup> ويموت بن  
المزراع ، وأبا بكر بن أبي داود السجستاني المحدث ، ومحمد بن عبد الله بن أبي  
الدهاب ، وغيرهم ممن يكاد يخطئهم الحصر

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي البصري  
المعروف بالمبرد . كان من أئمة اللغة والأدب فصيحاً بليغاً ثقة صاحب أخبار  
ونوادير وطرائف . صنف كتباً في الأدب كثيرة ولعل أفضلها كتابه الكامل ،  
وهو من أمهات كتب الأدب التي عليها المعول . وقد شرح هذا الكتاب النفيس  
معاصرنا الفاضل المرحوم الشيخ سيد بن علي المرصفي أحد علماء الأزهر شرحاً  
جيداً ، وقد أبدى فيه كثيراً من النقود والملاحظات والفوائد دلت على ذوق  
حسن وإطلاع واسع وطبعه في عدة أجزاء ودعاه رغبة الآمل من كتاب  
الكامل « وكان مولد المبرد سنة ٢١٠ هـ ووفاته سنة ٢٨٥ هـ

## الفصل الرابع

في

### موارد رزقه وبسطة جاهه

يظهر من حال أبي عثمان أنه كان في أول أمره في ضيق من الرزق. وخصاصة من العيش . فقد رُوي أنه وهو في دور الطلب كان يمانى الاتجار في الخبز والسّمك بِسَيحَانَ<sup>(١)</sup> . وسواء صح هذا الخبر أم لم يصح ، فهو دليل على أنه نشأ معنيا بأمر نفسه . وليس في هذا شيء من الغضاضة عليه . فلما عرف فضله ، وانتشرت مصنفاته ، وذاع ذكره في الآفاق أقبلت عليه الدنيا . واتسعت موارد رزقه ، وعلا حظه ، ونبل جده ، وطاب عيشه ، ودرت عليه أخلاف النعم ، ودرج في محبوبحة من اليسر والرخاء . ومن هذا الذي نوردته عليك تعرف طرفا من موارد رزقه . فقد كان الفتح بن خاقان<sup>(٢)</sup>

(١) سيحان هذا نهر بالبصرة اصلحه البرامكة وأطلقوا عليه هذا الاسم .  
 (٢) هو الفتح بن خاقان ، تركى الأصل من أبناء الملوك . مولى المتوكل . ووزيره وموضع نجواه ، بل اتخذه المتوكل أخاه وقدمه على أهله ، وكان خاصا به حظيا عنده وكانت منزلته من الخليفة فوق كل منزلة . كان كاتباً بليغاً وشاعراً فصيحاً وخطيباً مفوهاً . وكان له غرام بالكتب . ولأه المتوكل على الشام وأمره أن يستنيب عنه وكان موصوفاً بالشجاعة والرئاسة والكرم والسؤدد ، وله في الجود والوفاء والظرف أخبار حسان . وكان حاد الذكاء قوى الفطنة حاضر البديهة . قيل : دخل الخليفة المعتصم يوماً على خاقان يعودده فرأى الفتح ابنه صغيراً لم يشغره فآزره وقال : أيما أحسن دار الخليفة

وزير الخليفة المتوكل على الله العباسي<sup>(١)</sup> وصاحب تدبيره ، يعرف للجاحظ .  
حقه ومثلته ويقدر مكانته وينزله في الكرامة بالمقام اللائق به .  
كتب هذا الوزير من دار الخلافة ببغداد إلى الجاحظ يقول :  
« إن أمير المؤمنين يمجّد بك . ويهش عند ذكرك . ولولا عظمتك .

أم داركم ؟ فقال الفتح : دارنا أحسن إذا كان أمير المؤمنين فيها . فقال  
المعتصم : والله لا أبرح حتى أشر عليه مائة ألف درهم . وكان له خزانة كتب  
جمعها له علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً . وكان يحضر  
داره فضحاء العرب وعلباء البصرة والكوفة وزعم بعضهم أنه مع ما كان  
له من هذه المكانة والمنزلة لم يكن يرجى فضله ولا يخاف شره . ومن شعره قوله :  
لست مني ولست منك فدعني وامض عني مصاحباً بسلام  
وإذا ما شكوت ما بي قالت قد رأينا خلاف ذا في المنام  
لم تجد علة تجني بها الذنب فصارت تعتل بالأحلام  
وقوله :

وإني وإياها لكأختر والفتى متى يستطع منها الزيادة يزدد  
إذا ازددت منها ازددت وجداً بقربها فكيف احتراسي من هوى يتجدد .  
وقوله :

أبها العاشق المعذب صبراً لخطايا أخى الهوى مغفورة  
زفرة في الهوى أحط لذنب من غزاة وحجة مبرورة  
وله من المصنفات كتاب « البستان » وكتاب « الصيد والجوارح »

قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ

(١) هو الخليفة جعفر بن المعتصم بن هرون الرشيد . المتوكل على الله العباسي .  
بويح له بالخلافة يوم توفي الواثق سنة ٢٣٢ وأمه أمة يقال لها شجاع . وكان  
صاحب لهو وشراب وهو أول من جرأ الأتراك على قتله بتحريض ولده .  
المتنصر ، وكان ذلك أول ما أدخل الوهن على الخلافة العباسية . قتله باغرة  
التركي سنة ٢٤٧ هـ

في نفسه لعلمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين يمدك عن مجلته ، ولغصبتك رأيك وتديبيرك فيما أنت مشغول به ، ومتوفر عليه . واقد كان ألقى إلى من هذا عنوانه ، فزدتلك في نفسه زيادة كف بها عن تجشمتك . فاعرف لي هذه الحال ، واعتقد هذه المنية على كتاب « الرد على النضارى » وافرغ منه ، ومجل به إلى ، وكن ممن جدا به على نفسه ، وتدل مشاهرتك . قد استطلقت له لمنى واستسلفت لك لسنة كامئة مستقبلة ، وهذا ما لم تحلم به نفسك . وقد قرأت رسالتك في « بصيرة غنام » ولولا أنى أزيد في محيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها والسلام »

فأنت ترى من فحوى هذا الخطاب أن الجاحظ كانت له وظائف مالية يتقاضاها من دار الخلافة شهريا ، وذلك فضلا عن المنح والعطايا والإدرات التي كانت تنهل عليه منها لفناسبات . وما كان يتقرب به إليه وزراء الدولة وأصحاب السلطان فيها كالبرامكة<sup>(١)</sup> والطاهرية<sup>(٢)</sup> والفتح ابن خاقان وأبراهيم ابن العباس الصولى<sup>(٣)</sup> ومحمد بن عبد الملك

(١) البرامكة هم أبناء خالد بن برمك . وهم سلالة بعض عظام الفرس . وكان يضرب بهم المثل في الفضل والجود والسخاء والكرم والشهامة ومحاسن الشيم وقد أبادهم الرشيد في خبر طويل . وأمرهم معروف  
(٢) الطاهرية في أبناء طاهر بن الحسين القائد الشهير الذى وطد دعائم دولة المأمون وأزال دولة الامين . هم قادة سراة نبلاء أجواد تولى منهم مصر عبد الله بن طاهر . وخبرهم مشهور

(٣) هو أبو اسحق إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول توكين الصولى أصل جده صولى تركى تمجس واتخذ شعار الفرس وكان ملكا على جرجان وأسلم على يد زيد بن المهلب وقاتل بين يديه حتى قتل معه يوم المعمر . وكان إبراهيم كاتبًا بليغا وشاعرا مجيدا . قال المسعودى لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من

الزيات<sup>(١)</sup> وأحمد بن أبي دؤاد<sup>(٢)</sup> وأمثالهم من ذوى الكلمة المسموعة والإرادة المطاعة. سأل ميمون بن هرون<sup>(٣)</sup> الجاحظ - ورأى ما هو فيه من النعمة السابعة والجاه العريض - : أنك ضيعة بالبصرة؟ فتبسم الجاحظ وقال: إنما أنا ، وجارية تلى ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار ؛ أهديت كتاب

« الحيوان » إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب « البيان والتبيين » إلى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاني خمسة

الكتاب أشعر منه . وقال دعبل بن علي الخزاعي الشاعر: لو تكسب إبراهيم ابن العباس بالشعر لتركنا في غير شيء . تقلب في أعمال السلطان وتقل في الدواوين وتوفى وهو يلي ديوان الضياع والنفقات سنة ٢٤٣ هـ بسر من رأى (١) هو محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الكاتب البلغ . تولى الوزارة للعتصم والوائق ، فلما ولي الخلافة التوكل كان واجدا عليه فقتله . على ما قيل . في تنوره الشهير . وكان الجاحظ يميل اليه ويؤثره بوده وإخلاصه . توفى سنة ٢٢٣ هـ

(٢) هو القاضي السرى العظيم أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الأيادي صاحب السطوة والجاه والنفوذ في دولة المعتصم والوائق . كان بعيد الهمة واسع المروءة مهيب الجانب مقبل العثرات . وكان الخليفة المعتصم لا يرد له طلبا كائنا ما كان . ولم يكن يطلب شيئا قط لنفسه وإنما كانت همته مصروفة إلى قضاء مصالح الناس والسعى في خيرهم والعمل على انقاذهم من ورطت الحياة والترقية عنهم وحفظ ماء وجوههم وحقن دماهم ، وله في أعمال البر وإسداء المعروف أباد لم يلحق شأوه فيها غيره . وله في ذلك حوادث وأخبار هي منتهى عجب العاجب . وكان المعتصم يقول فيه : هذا والله الذى يترين بمثله ، ويتبعج بهربه . ويعد به ألوف من جنسه . توفى بالفالج سنة ٢٤٠ هـ

(٣) هو ميمون بن هرون : الكاتب الأخبارى الراوية

آلاف دينار ، وأهديت كتاب « الزرع والنخل » إلى ابراهيم بن العباس .  
الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار . فانصرفت إلى البصرة ومعى ضيعة .  
لاحتاج إلى تجديد ولا تسميد !

وإذا كانت هذه هي حال الجاحظ وهذا مبلغ حظه من أبناء زمنه ، فلا  
عجب إذا تمكن من أن يملأ طباق الأرض علما ، وأن يعلو على أمثاله  
فضلا وفهما ، وأن يقدم للغة العربية هذه المصنفات التي وضعها في كل ضرب  
من ضروب العلوم وفن من فنون الآداب ، على كثرتها وجليل شأنها ،  
فإن العطايا واللهي تفتح الله ! على شريطة الاستعداد الفطري والكفاية  
الظاهرة

ودخل عليه بعض إخوانه فقال له : كيف حالك يا أبا عثمان ؟ فقال .  
الجاحظ : سألتني عن الجملة فاسمها منى واحداً واحداً : حالي أن الوزير  
يتكلم برأى وينفذ أمرى ، ويواتر الخليفة الصلوات إليّ ، وآكل من لحم  
الطير أسمها ، وألبس من الثياب أليتها ، وأجلس على أئين الطبرى ،  
وأتكى على هذا الريش ، ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج ؟ فقال  
الرجل : الفرج ما أنت فيه ! فقال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل  
محمد بن عبد الملك بأمرى ويختلف إلي ، فهذا هو الفرج !

بهذه العبارة قد وصف الجاحظ حاله وبسطة جاهه . وما ذكره للخلافة  
الإامنية من أماني النفس التي لاحد لها في مطامعها . ولعله وهو يقول هذا  
قد أبدى لسائله إشارة أخرج بها الكلمة مخرج المزاح ، وإلاقتل هذه  
العبارة متى خرجت مخرج الجد كانت غير مأمونة العاقبة . والجاحظ أعقل  
من أن يعرض نفسه للمعاطب ، وهو يعلم أن الملك عقيم

## الفصل الخامس عشر

في

### رأسته لديوان الرسائل

كان ديوان الرسائل في المالك الإسلامية من أهم ما يدور عليه محور السياسة العامة للدولة. وكان لا يعهد فيه إلا لنوى الشرف والنباهة من الثقات الكفاة، وكان لا يليه إلا الخذاق الضابطون بالسهام الوافرة في مختلف العلوم والآداب، وإلا أصحاب السياسة والتدبير، والكياسة والتقدير، على أن يكون القائم باعبائه متفوقا في صنوف البلاغات وضروب الإيانات. وقد كان إبراهيم بن العباس الصولي ممن بنوبون فيه حتى أوائل عهد المأمون، وكان الجاحظ يخلفه فيه إذا تغيب في شأن من الشؤون الخاصة أو العامة. ثم أصدر المأمون أمره باستناده إلى الجاحظ. فصعد بالأمر على كره منه. ويظهر أن توليه هذا الديوان واقتعاده هذا المنصب الخطير، أثار عليه حفاظ الكتاب، فأخذوا في دس الدسائس ضده وبث الوشاية به. ولهذا بادر الجاحظ بعد ثلاثة أيام من توليه إلى الاستعفاء معتذرا للخليفة بما فتح الله عليه من الأعذار، فأعفاه. وكان سهل ابن هرون<sup>(١)</sup> يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب...

(١) هو أبو عمرو سهل بن هارون بن راهبون. أصله من دسمة من بلاد فارس. انتقل إلى البصرة ولقى علماءها وأفاد منهم علما وأدبا، ثم اتصل بالمأمون فخطى عنده وتولى له «خزانة الحكمة» وهي دار الكتب. وكان كاتباً بليغاً جمع بين الحكمة والأدب. وله شعر جيد. وكان شعوبياً المذهب شديد العصية على العرب، وكان نهاية في البخل، وله فيه حكايات ونوادير

فهل كان الجاحظ من أحرار الكتاب الذين وقفوا أقلامهم على وحى

قال دعبل بن علي الخزاعي : كنا عنده يوماً فأطلنا القعود حتى كاد يموت جوعاً ثم قال لغلامه : ويحك غدنا ! فأتى بقصعة فيها ذلك مطبوخ فتأملها ثم قال : أين الرأس ؟ قال : رميت به . فقال : والله إني لأمقت من يرمى برجليه فكيف برأسه ؟ ولولم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد وفيه الفرق الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بها المثل في الصفاء فيقال : شراب كعين الديك ، ودماغه عجيب لوجع الكلية . ولم نر عظماً أهش تحت الأسنان منه ؟ وهل ظننت أني لا آكله ؟ إن العيال يأكلونه ! وإن كان قد بلغ من ذلك أنك لا تأكله فعندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق ؟ أنظر أين هو ؟ فقال : والله يا سيدي ما أدرى أين هو ولا أين رميت به ؟ فقال : أنا أدرى أين رميت به ! رميت به في بطنك قاتلك الله . وكتب رسالة في البخل وبالغ في مدحه وبعث بها إلى الحسن بن سهل وزير المأمون واستباحه عليها فوقع الحسن على ظهرها بقوله : وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك . وقد مدحت ما ذم الله وحسنت ما قبح ، وما يقوم فساد معنك بصلاح لفظك ، وقد جعلنا ثوابك عليها قبول قولك والتصديق لك ، فما نعطيك عليها شيئاً والسلام . ومن شعره قوله :

تقاسمني همان قد كسفا بالي      وقد تركا قلبي حلة بلبال  
هما أذريا دمعى ولم تذر عبرتي      ريبية خدر ذات قرط واخلخال  
ولا قهوة لم يبق منها على المدى      سوى أن تحاكي النور في رأس ذبال  
ولكنني أبكي بعين سخينة      على حدث تبكي له عين أمثال  
فراق خليل مثله يبعث الأسي      وخلة خل لا يقوم لها مالى  
فوا أسفا حتى متى القاب موجه      بفقد خايل أو تعذر إفضال  
فما العيش إلى أن تجود بنائل      وإلا لقاء الاخ ذالخلق العالى

وله كتب كثيرة وفوائد جمة تدل على فضل كثير وحكمة بالغة . مات

في عهد المأمون

إرادتهم ، فلا يرون الوقوع تحت نير الأعمال السلطانية ، ولا يحبون أن يجعلوا أقلامهم وفق إرادات ذوى السلطان من الخلفاء، والملوك والوزراء وأرباب الدولة ؟ أم كان من الذين يرون في هذه الوظائف وسائل الرفعة الواسعة والجاه العريض ؟ الظاهر أن ميله إلى التحرر من ربة التنظيم الديوانية كان أغلب عليه من الوقوع تحت طوائفها . وفي الحقيقة أن الجاحظ كان تطلق عنان العقل حاد شبا القلم . وكان أشبه الناس بكتاب الصحف لهذا العهد ، ومن أعلى طبقة في هذا النوع . وقد بلغ به الأمر في تحقير الوظائف والموظفين أن دخل يوماً ديوان المكاتبات فرأى قوما قد صدقوا ثيابهم ، وصدفوا عمامتهم ، ووشوا طرؤهم ، فقال : هؤلاء كما قال الله تعالى : « فَمَا الزَّيْدُ فَيَذَّهَبُ جُفَاءً » ظواهر نظيفة ، وبواطن سخيقة « فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ »

على أن الجاحظ لم يترك قولة سهل بن هرون تمر بلا جزاء ، ولم يتسامح معه فيها . ولعل لسهل يدا في استثارة حميته وخروجه من الديوان . فقد جعل الجاحظ من سهل بن هرون المثل المضروب في البخل والبخلاء ، لأن سهلاً وضع رسالة بليغة في مدح البخل وذم الكرم جعلت اسمه شائعة في سائر الأجيال . وما مدح البخل إلا لنيم ، ولا ذم الكرم إلا زعيم . ومن أطرف ما حصل من الجاحظ وهو يتولى ديوان الرسائل نيابة عن الصولي أن أبا العيناء<sup>(١)</sup>

(١) هو أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر النمامي مولى المنصور عرف بأبي العيناء لكبر حدقيه مع حول وضعف بصره . كان شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً . حاضر الجواب قوى البديهة ، فصيح اللسان ، مخشى الجانب لفضل لسانه . ولما بلغ الأربعين كف بصره . وروى عنه أنه قال : أنا والجاحظ وضعنا حديث فذك وأدخلناه على الشيوخ يفتاد فقبلوه إلا ابن شيبه

جاءه في أمر فلما أراد الانصراف أسر الجاحظ إلى حاجبه أنه إذا وصل إلى  
الدهليز لا يدعه يخرج ولا يمكنه من الرجوع إليه . فلما خرج أبو العيناء من  
بين يديه وصار في الدهليز حجزه الحاجب وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته :  
يا أبا عثمان ، قدأرقتنا قدرتك ، فأرنا عفوك؟

ولم يكن ذلك من الجاحظ إلا دعابة ، مع صديقه أبي العيناء صاحب  
النوادر والملح والفكاهات

العلوى فانه قال : لا يشبه آخر هذا الحديث أوله . وله نوادر وأخبار وطرائف  
غاية في الابداع والطيب . ولد بالاهواز سنة ١٩١ هـ وتوفي سنة ٢٨٢ هـ



## لفصل السائس

في

### معارفه وأحاطته

أتقن الجاحظ علوماً كثيرة ، وتعرف ألواناً من المعارف شتى ، وقرأ كتب الأوائل من فلاسفة اليونان ، وحكماء الهند ، وعلماء الفرس ، وأدباء الرومان ، ونظر في ثمرات قرائحهم ومنتجات أذهانهم ، حتى لم ينقل كتاب إلى اللغة العربية في أي علم وفي أي فن إلا قرأه واستظهره وتمثله . قال أبو هفان (١) : لم أرقط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كأنثاً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ( باعة الكتب ) يبيت فيها للنظر . . . . وكان كثير الحفظ واسع الرواية قوى الحججة ناصع البرهان . وأقرب ما يوصف به أنه كان دائرة معارف أحاطت بمعلومات أهل دهره .

ويؤخذ من مجمل حاله أنه كان يجيد اللغة الفارسية . فإن متصفح رسالته « التربيع والتدوير » وكتاب « الحيوان » و « البيان والتبيين » وغيرها من مصنفاته لا يسهه إلا الخروج منها ممتليء النفس بإحسان الجاحظ لهذه اللغة . أجل ليس هناك نص صريح يملأ يد الباحث في هذا الشأن .

(١) هو عبد الله بن أحمد بن حرب أبو هفان المهزومي البصري . كان نحوياً أديباً راوية صاحب أخبار . وكان ضيق الحال مقترناً عليه في الرزق كثير التبرم بالعيش

ولكن هناك من العبارات والأفاظ ما يدفع إلى استنباط هذا الرأي  
ومن أقرب الشواهد على ذلك قول الجاحظ :

« والفتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم  
على صاحبها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن ميار الأسواري ، وكان من  
أعاجيب الدنيا . كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان  
يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ  
الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس  
فيفسرها لهم بالفارسية . فلا يدرى بأي لسان هو أبين »

هذا شاهد غير أنه على ما أرى ليس بكاف ، لأن قوله « إلا ما ذكروا »  
جعله رواية منقولة عن قائلين ، وأنه لم يشهد مجالس الأسواري ، ولكنه حدث  
بها فتحدث عنها . وليس معنى تعضه لغة الفرس هو الذي جعله أديباً مستكمل  
الآلة كما يريد أن يذهب إليه بعض معاصرينا ممن يبغضون اللغة العربية .  
لجملهم بها . فاللغة العربية وحدها كافية لتخريج أديب تام الآلة مستكمل  
الأدوات كالجاحظ وأضرابه

على أنني مهما تعزز النص على معرفة الجاحظ بلغة الفرس ، ما أزال  
أحس وأشعر بأنه كان يعرفها . إذاً : فمسألة عرفان الجاحظ باللغة الفارسية .  
تُستنبط بالقوة من خلال السطور في كتبه ، ولا تؤخذ بالنص  
ومما يدل على سعة معارفة وإحاطته ما قاله أبو بكر أحمد بن علي <sup>(١)</sup> فيما  
روى عنه أنه قال :

(١) هو أبو بكر أحمد بن علي بن أنجور بن الأخشيد . كان والده أحد كبار  
القواد من الفراغنة ولى الثغور للمعتضد والمكتفي . قال ابن حزم : وكان  
أبو بكر هذا أحد رؤساء المعتزلة الثلاثة الذين اتهمت إليهم الرئاسة -

كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام . وكان واسع العلم بالكلام ، كثير التبخر فيه ، شديد الصبغ لحدوده ، ومن أعيا الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصره الدين ، وفي حكاية المخالفين ، و [في] الآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل . وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها . وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تليق العقول ، وشحن الأذهان ، ومعرفة أصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها . والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور

أظن أنه ليس بعد هذا في هذا الباب كلام

وافترقت المعتزلة على مذاهبهم ، والثاني أبو هاشم الجبائي ، والثالث عبد الله ابن محمد بن محمود البلخي المعروف بالسكعي . وقال ابن النديم : ابن الاخشاد من أفاضل المعتزلة وصلحاتهم وزهادهم . وكانت له ضيعة منها مادته وكان ينفق أثير ما يحمل إليه منها إلى العلم وأهله . وكان فصيحاً بينا طلق اللسان قياً بالعربية والفقهاء وسائر العلوم . وله عدة كتب ، توفي سنة ٣٢٦ هـ

## فصل السابع

في

### وضعه الكتب على السنة المتقدمين

ووضع غيره الكتب باسمه

لم يكن الجاحظ في طالعة أمره ومستهل نشأته سعيد الجدة ، ولا نبيل الحظ ، بل قد أصابه من الخول ، وعدم التقدير ما يصيب أكثر المشتغلين بصناعة القلم في كل عصر ، وفي كل مصر ؛ حتى يومنا هذا . ويظهر أن تقيس آثار الماضين ، واعتبار أعمال الفايدين ، فكرة عريضة في القدم لها في النفوس سلطان ، وفي الصدور تمكين وإمكان ، ولها في الخيلة منزلة قد لا تزاحمها عليها منزلة أخرى . فقد روى المسعودي<sup>(١)</sup> في كتابه « التنبيه والإشراف » أن الجاحظ على جلالته قدرة كان يقول :

كنت أولف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، وأنسبه إلى نفسي فلا أرى الأسماع تُصغى إليه ، ولا الإيرادات تقيم نحوه ، ثم أولف

(١) هو أبو الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ المشهور ينسب نسبه إلى عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل . وكان من أفاضل المؤرخين علامة إخباريا ذا نوادر وملح وغرائب وتحف . وكتابه مروج الذهب من أجل كتب التاريخ وأمتعها . وله غيره كتب كثيرة ، ومنها كتاب التنبيه والإشراف . وهو بغدادى الأصل رحل إلى الآفاق ثم أقام بمصر مدة ومات سنة ٣٤٦ هـ .

ما هو أنقص منه رتبة ، وأقل فائدة ، وأجله عبد الله بن المقفع<sup>(١)</sup> ، أو سهل ابن هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ممن صارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها ، لا شيء إلا لنسبتها للمتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومناقسته على المناقب التي عني بتشييدها

وهذا قول صريح في أن الجاحظ ألف كتباً ونسبها إلى طائفة من الكتاب والمصنفين ومن بينهم ابن المقفع وسهل بن هرون . ومن الغريب أن يمر على هذا الإعراف الصريح أحد عشر قرناً ولم يتم من كتاب العربية باحث واحد ينظر في كتب ابن المقفع ويضع مقارنة بين أسلوبها وأسلوب الجاحظ يبين بها ما قد يكون لغيره منها . ولعل المانع من ذلك قلة ما في اليد من آثار ابن

(١) هو عبد الله بن المقفع . قال الجاحظ : هو من المعلمين ثم من البلغاء والمتأديين عبد الله بن المتفّع ، ويكنى أبا عمرو ، وكان يتولى لال الأهم وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير وكان جواداً فارساً جميلاً ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام ولم يكن يحسن منه لاقبلاً ولا كثيراً ، وكان ضابطاً لحكايات المقالات ولا يعرف من أين غر المغتر ، ووثق الواثق ، وإذا أردت أن تعتبر ذلك إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية ، فانك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم . ردى المدخل في مواضع الطعن عليهم . وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم فيظن بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بعد به فيه . وقال ابن النديم : اسمه بالفارسية روزبه . وكان يكنى قبل إسلامه أبا عمرو فلما أسلم اكنى بأبي محمد . وكان يكتب أولاً لداود بن عمر بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن علي . ولد سنة ١٠٦ هـ وقتل سنة ١٤٢ هـ

المتعم التي قد يكون ذهب بجمهورها عادى الدهر كما ذهب بأكثر كتب

الجاحظ وبجماة كتب سهل بن هرون

وكما حمل الجاحظ على غيره من الأدباء كتب ليست لهم ، كذلك حمل

عليه الأدباء والمصنفون من بعده الشيء الكثير منها ، ولا يزال ينسب إليه

ما ليس له منها إلى الآن. فقد نسب إليه منها قديما : كتاب «الأبلى» وكتاب

« الهدايا » ذكر ذلك ياقوت في معجمه . كما نسب إليه كتب « تبيه

المنوك والمكابد » أشار إلى ذلك أحمد زكي باشا .

ونسبوا إليه كتاب « المحاسن والأضداد » ونسب إليه أحمد زكي باشا

كتاب « التاج » كما نسب إليه التاخرل راضب الطباخ كتابا اسمه « الدلائل

والاعتبار على الخلق والديبر » وطبع هذا الكتاب أخيرا في حلب .

وليس في أسلوبه ما يدل على أنه للجاحظ أو من بابه



## الفصل الثامن

في

### مقامه في رأى خصومه

للجاحظ ، كما لغيره من نوادر الرجال . خصوم ينتقون عن مثالبه ويذيعونها في الناس ، كما له أنصار يعرفون مناقبه ويبشرون بها وينشرونها بين الملأ ، وكلا الخصوم والأنصار لا يفترون عن الهجوم والدفاع وعن المجادلة فيه والمجادلة له . شأن كل عظيم له في الحياة العامة أثر ظاهر وعمل باهر ، وقد رأينا أن نلم في هذا الفصل بما ثلبه به خصومه ، وبما رماه به أعداؤه ، أو وصفه به أنداده وقرناؤه ، لتعرف وزن ما رموه به من المآخذ والمثالب ، حتى يمكن زنتها بما عرف له من مناقب . وأول ما نبدأ به مطاعن ابن قتيبة (١) فيه على ما جاء في كتابه « تأويل مختلف الحديث » قال :

ثم نصير الى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين ، والمعابر على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلوفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم

(١) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري . كاتب اديب كثير التصانيف ذا معرفة باللغة والأخبار وأيام الناس . ولى قضاء الدينور قال عنه السيقي إنه كان كريماً . وقال الدارقطني إنه كان يميل إلى التشبيه . قلت هذا صحيح ترى هذا ماثلاً في كتابه تأويل مختلف الحديث . وقال الحاكم أجمعت الأمة على أنه كذاب . وحسن الظن فيه بعضهم فنتي عنه ذلك . وله كتب جيدة في بابها نافعة في فنونها ولد سنة ٢١٣ هـ وتوفى بأكلة هريسة حارة سنة ٢٧٦ هـ

حتى يصغروا، ويبلغ بها الاقتدار إلى أن يعمل الشيء، وتبيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجدد محتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل علياً رضي الله عنه، ومرة يؤخره. ويقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتبعه قال الجواز<sup>(١)</sup>، وقال اسماعيل بن غزوان:

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو الجواز وهو ابن اخت سلم بن عمرو الشاعر المعروف بالخاسر. ولما كانت ترجمة الجواز غير معروفة فقد جهدت في جمعها وتأليفها من شتى الكتب، ولم أحصل منها على هذا القدر إلا بعد عناء كثير، ولهذا آثرت إثباتها هنا. زعموا أن أمه كانت نائحة، وكان هو شاعراً مجاه خبيث اللسان داهياً منكرأ، وله نوادر وطرائف وملح. وله حوادث واهاج مع عبد الصمد بن المعذل وأبي العتاهية والجاحظ وغيرهم من معاصريه. قال عبد الصمد بن المعذل: هجاني الجواز بيتين سخيفين فساراً في أفواه الناس حتى لم يبق خاص ولا عام إلا رواهما وهما قوله:

ابن المعذل من هو ومن أبوه المعذل  
سألت وهبان عنه فقال بيض محول

وكان وهبان هذا رجل يبيع الحمام لجمع قوماً من أصحابه وجيرانه وجعل يغشى المجالس ويحلف للناس أنه ما قال إن عبد الصمد بيض محول، ويسألهم أن يعتذروا إليه. وكان هذا منه قد صار بالبصرة طرفه ونادرة. قال أبو شراعة: فقامني عبد الصمد يستقيت منه ويقول أتقنني من الجواز فقلت له: أملك بفرق من الجواز؟ فقال: نعم لا، لا يبالى بالهجوم ولا يفرق منه ولا عرض له، وشعره ينفق على من لا يدري وآفني منه عظيمة، والله لدوران وهبان على الناس يحلف لهم أنه ما قال أني بيض محول أشد على من هجائته! فأصلحت بينه وبين الجواز ثم أرسلت إلى وهبان فأحضرته وقلت له: يا هذا قد علمنا أن الجواز قد كذب عليك وعذرناك فتحب أن لا تتكلف العذر إلى الناس في أمرنا فانا قد عذرناك. فانصرف وقد لقي عبد الصمد منه بلاء. قال عبد الصمد: وقلت أنا في الجواز شعراً تركته يتحاجني فيه كل أحد

كذا وكذا من الفواحيش . ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن

غير أن الناس لم ترووه لضعفة الجماز، وهو قول :

نسب الجماز مقصود إليه متناه  
يترا أي نسب الناس فما يخفى سواه  
يتحاجي من أبو الجماز من هو ثابتاه  
ليس يدري من أبو الجماز إلا من رآه

قلت : وهذه الآيات يرويهما يموت بن المزرع للمجاط في الجماز ، وهي بعيد الصمد أشبه وهو بها أحق ، وكتب الجماز إلى صديق له يستمحه ، فاعتذر إليه ، فأجابته : **دين كنت كاذبا جعلك الله صادقا ، ودين كنت ملوما جعلك الله معنورا ،** وكان أبو العتاهية بنشد قثم بن جعفر بن سليمان شعرا والجماز حاضر فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح الترهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد  
لو كان في ترهيد صادقا أضحى وأمسى بيته المسجد  
يخاف أن تنفذ أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد  
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية وقال : **من هذا؟** قالوا : الجماز، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتصر لحاله منك . فأقبل عليه وقال : **يا ابن أخي ، إن لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الصديق صديقه ، فإله يغفر لكما .** وقد أراد أبو العتاهية بقوله أنه لم يرد أن يهتف بخاله أن قوله في سلم الخاسر :

تعالى الله يا سلم ابن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

لم يكن من طريق التشيع عليه أو المواخذة له . وقال الجماز : شممت من دار فلان رائحة قدر أطيب من رائحة العروس الحسنة في أنف العاشق الشبق . وقال : ثلاث من الطيبات : الوطء في الحمام ، والبول في الطشت ، وضعف الاصلع . وكان يتعشق جارية لآل جعفر يقال لها صفيان ، وكان لها خصي يحفظها أني سارت ، وكان الخصي أشد عشقا لها من الجماز ، فإله ينهوين كلامها

يذكر في كتاب ذكر فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطين؟ ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فإذا صار إلى الرد عليهم تجاوز في الحجة ، كأنه إنما أراد تبيينهم على ما لا يعرفون ، وتشكيك الضعفة من المسلمين . وتجده يقعد في كتبه المضاحك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النيذ . ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره « كبد الحوت » و « قرن الشيطان » وذكر « الحجر الأسود » وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وكان يجب أن يبيذه المسلمون حين أسلموا ويذكر « الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع » تحت سرير عائشة (١) فأكثرها الشاة .

وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في « تنادم الديك والغراب » و « دفن الهدد أمه في رأسه » و « تسبيح الضفدع » و « طوق الحمامة » وأشياء هنا ، وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل .

وقبل أن نعرض للبحث فيما ذهب إليه ابن قتيبة من تلب الجاحظ ورميه بما رماه به بسط هنا المسائل التي جعلها أساسا للطعن فيه :  
والدنو منها ، فقال الجناز فيه آياتنا منها قوله :

ما للقيت سنان وللظباء الملاح  
ليس خصي بزبان غاز بغير سلاح؟

وله غير هذا شعر كثير لا نرى لإثباته هنا . ولم أقف على تاريخ وفاة الجناز ولعله كان في الثلث الأخير من القرن الثالث

(١) هي أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم وقد بسطت ترجمتها بكتاب الإصابة فلا حاجة لتعريف المعرف .  
توفيت سنة ٥٨ هـ

فأما إشارته إلى « كبد الحوت » فقد يروى في بعض الآثار أن أول طعام يقدم لأهل الجنة في الجنة هو كبد الحوت الذي يرمون أنه حامل للثور الحامل للأرض على قوائمهم.

وأما إشارته إلى « قرن الشيطان » فهو زعمهم أن الشمس تطلع من بين قرني شيطان ، ويروون حديثاً ينهى عن الصلاة عند طلوعها تأييداً لهذا الزعم.

وأما إشارته إلى « الحجر الأسود » فقد روى عن ابن عباس (١) أنه قال : « الحجر الأسود من الجنة ، وأنه كان أشد بياضاً من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك !... مع أن ابن الخنفية (٢) كان يقول : إن الحجر الأسود من بعض هذه الأودية . وكان الجاحظ يتندر على ما تقولوه على ابن عباس ويقول : إن كان المشركون قد سودوه فقد كان يجب على المسلمين حين أسلموا أن يبيضوه ؟ ! ! ! . . . »

وأما إشارته إلى « صحيفة الرضاع » فقد أسندوا كلاماً إلى عائشة تقول فيه : « لقد نزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشرًا وكانت في صحيفة تحت سريري عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما توفى وشغلنا به دخلت داجن للحى فأكملت تلك الصحيفة ؟ ! ! ! . . . ومن طرائف ما يروى أن

(١) هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، حبر الأمة وإمام علمائها وسيد رؤسها ومحدثها . ولد في الشعب أيام أن حاصرت قريش النبي وبنى هاشم فيه . وتوفى بالطائف سنة ٤٠ هـ .

(٢) هو أبو التميم محمد بن علي بن أبي طالب . كان يعرف « بابن الخنفية » وهي أمه . وكان شجاعاً باسلاً ، شهد مع أبيه مشاهدته . وتوفى بالطائف

الأحناف يؤيدون الجاحظ في استنكار هذا الحديث ويتندرون بالشافعية الذين يعتقدون به . ففي كتاب « الجواهر المضية » يرى أبو حنيفة أن التحريم بالرضاع يتعلق بالقليل والكثير ، ويرى الشافعي تعلق التحريم بخمس رضعات . ودليل أبي حنيفة قول النبي صلى الله عليه وسلم : الرضاعة من المجاعة . يعنى ماسد الجوعة . ودليل الشافعية ما هو ؟ يقول الأحناف : كان للشافعية دليل فأكلته الشاة . . . !

ومن الغريب أن الجاحظ ، بل والمعتزلة جميعاً ، يدفعون هذا السخف ويبطلون هذا الهراء و يقيمون على زيف ذلك الحجة التي لا تدفع ، والبرهان الذي لا يرد ، ويرون هذا الخبر مخالفاً لقوله تعالى « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ » فكيف يكون عزيزاً وقد أكلته شاة وأبطلت فرضه وأسقطت حجته ؟ وأي أحد يعجز عن إبطاله والشاة تبطله ؟ وكيف قال « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » وقد أرسل عليه ما يأكله ؟ وكيف عرض الوحي لأكل شاة ولم يأمر بإحرازه وصونه ؟ ولم أنزله وهو لا يريد العمل به ؟ !! لكن ابن قتيبة يدفعه حقه على المعتزلة إلى أن يذهب في تصحيح هذا الخبر الكاذب كل مذهب . وهذا من أغرب ما يروى في باب التعصب للرأى والحق على الخصم

وأما إشارته إلى « تنادم الديك والغراب » فقد كان الأعراب في الجاهلية يزعمون أن الغراب في ماضى الدهر كان يتألف الديك ، وكان ينادمه ، فاخترع الغراب الديك وتلعب به ورهنه عند الحمار وتركه حتى أغلق عذده ، وتخلص من الغرم الذى لحق الديك وفاز هو بالغرم . فضرب به المثل حتى قال أمية بن أبي الصلت (١) :

(١) هو أمية بن أبي الصلت ، أحد شعراء ثقيف وفصحاء العرب ، وكان .

بِأَيَّةِ قَامَ يَنْطِقُ كُلُّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدَّيْكَ الْغُرَابُ  
 وأما إشارته إلى «دفن الهدهد أمه في رأسه» فقد زعم أصحاب الأساطير  
 أن الهدهد تن الریح ، وأن هذا النتن إنما عراه لما دفن أمه في رأسه حين  
 ماتت ، وأن القنزعة التي في رأسه إنما هي ثوابه على بره بأمه . ولأمية بن  
 أبي الصلت في هذا الخبر شعر معروف .

وأما إشارته إلى «تسبيح الضفدع» فقد زعموا أن تقيتها هذا الذي  
 نسمعه حينما تكون في الماء إنما هو تسبيح. وقد أوردوا على ذلك بعض الآثار  
 وأما إشارته إلى «طوق الحمامة» فقد زعموا أن نوحا لما بعث الحمامة  
 لاستكشاف الأرض ولتنظر هل ترى موضعا منها يصلح مرفأ للسقينة ، فعادت  
 إليه وفي فمها غصن من الزيتون ، فرشاها نوح بهذا الطوق الذي لا يزال في  
 عنقها . وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت :

وَأُرْسِلَتْ الْحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعِ تَبَدُّلٍ عَلَى الْمَهَالِكِ لِانْتِهَابِ  
 فَجَاءَتْ بَعْدَمَا رَكَضَتْ بَغْضُنٍ عَلَيْهَا الشَّاةُ وَالطَّيْنُ الْكُتَابُ  
 فَلَمَّا فَرَسُوا الْآيَاتِ صَاغُوا لَهَا طَوْقًا كَمَا عُقِدَ السَّخَابُ

هذه هي المسائل التي أشار إليها ابن قتيبة واتخذها وسيلة للطعن في  
 الجاحظ ، والنيل من عقيدته ، والخط من شأنه . وليس للجاحظ من ذنب  
 عنده إلا أنه أوردتها في بعض كتبه ساخرا منها ، منددا بمن رواها ،  
 مستخفا بسندها . وابن قتيبة من الحشوية الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن  
 كل ما يروى عن أهل الحديث ، والذيادة عن كل ما يسند إليهم من الخرافات  
 يتأله في شعره . قرأ الكتب القهيمية وعرف أن نيا سبيعت في العرب ، فكان  
 يرى نفسه حقيقاً بأن يكونه . فلما بعث النبي حسده وأعان عليه خصومه من  
 قريش . وله مرات في قتلاهم . مات على غير إيمان سنة ٢ هـ

والأساطير التي لا يقرها عقل رجيح ، ولا يسندها نقل صحيح ، وما هي إلا  
من أسفار الرواة وأحاديث القصاص

ومن أعجب العجب أنني رأيت بعض الأئمة قد خدعوا بآبن قتيبة  
وأنزلوه من المحدثين في منزلة الجاحظ من المتكلمين؟ وشتان بين من يستعمل  
ما وهبه الله من عقل ، وبين من يعطل هذه المنة الكبرى مستسلما لعواصف  
الآراء ، ونوازع الأهواء . ولعل الامام ابن تيمية<sup>(١)</sup> لم يصل إلى علمه هذا  
السخف الذي جاء به ابن قتيبة ، ونظر اليه من جهة رآه فيها صالحا فوصفه  
بما وصفه به .

أما ما تنقص به ابن قتيبة أبا عثمان الجاحظ من أنه كان يعمل الشيء  
وقبيضه ، فلا أدري كيف غاب عنه أن هذا من قوة البيان ، وفضل الافتنان؟  
وكيف فاته أن ذلك من معجزات البلاغة التي اختص الله الجاحظ بها ،  
وألقي إليه بأزمتهما؟ وهل في الوجود شيء خالص من الشوائب ، أو يرى  
من المعاييب؟ أم هل هناك خير محض أو شر محض؟ الحق أنه لا يوجد  
في هذا العالم ما ليس فيه وجه للمدح وآخر للقدح . وقد أعطى الجاحظ  
أكبر قسط من فضل اللسن حتى إنه ما كان يروم وصف شيء كائنًا ما كان  
إلا جلاه عليك في صورة يعجز غيره من فحول البلاغة وأعيان البيان عن  
عرضه في مثلها

ومن المعروف عند أهل الكلام أن المحدث كلما كان أموق كان عند

(١) هو الامام أحمد بن عبد الحلیم الحرانی المشهور بآبن تيمية . كان  
إمام عصره في سائر العلوم ، وهو وإن كان حنبلي المذهب إلا أنه كان يرى  
لنفسه ويعتمد على اجتهاده . وله مصنفات عدة ظاهر فيها التمكن والاجتهاد .  
ولد بجران سنة ٦٦١ هـ وتوفي سنة ٧٢٨ هـ

العامه وأشباه العامه أنفق ، وإذا كان كثير اللحن والتصنيف كانوا به أوثق ، وإذا ساء خلقه وكثر غضبه واشتد حدة وعُسرته تهافتوا عليه . وقد كان في ابن تميمية شيء من هذا ولا سيما أنه كان به تسرع وتهافت ونهم وجشع ، وكفالك منه أن الرواة أجمعوا على أنه قدمت إليه هريسة ، فلم يصبر عليها حتى تهدأ سخونتها وتنفثاً حرارتها ، بل تناولها وابتلعها فكانت القاضية عليه وذهبت فيها نفسه ، وليس بعد هذا دليل على السخف والرعونة

وتقلا عن أبي العباس « ثعلب »<sup>(١)</sup> أنه قال في بعض مجالسه : أمكوا عن ذكر الجاحظ فإنه غير ثقة . ولعل من هنا أخذ أبو منصور الأزهرى<sup>(٢)</sup> قوله : كان الجاحظ روى عن الثقات ما ليس من كلامهم ، وكان قد أوتي بسطة في لسانه ، وبيانا في خطابه ، ومجالاً واسعاً في فنونه ، غير أن أهل العلم والمعرفة ذموا ، وعن الصدق دفعوه .

وهذا كلام لا يضير الجاحظ أن ينال فيه مثله ، لأنه لا دليل فيه ولا برهان عليه . وكيف يصح من أبي منصور أن يرسل الكلام هكذا على هواه دون أن يشد أركانه بحجة قائمة أو سلطان مبين ؟ !

وهذا البديع الهمداني<sup>(٣)</sup> يصف الجاحظ في إحدى مقاماته بقوله : إن

(١) هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . أحد أئمة النحو من الكوفيين

وكان عارفاً بالشعر والمعاني والغريب . ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٩١ هـ

(٢) هو أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى : كان لغوياً أديباً ، أسرته

القرامطة فبقى فيهم دهرأ ، وهو صاحب كتاب « التهذيب في اللغة » وكان ثقة

فيما روى من اللغة حجة فيما ينقل في تهذيبه . ولد سنة ٢٨٢ هـ وتوفي سنة ٣٧٠ هـ

(٣) هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمداني الكاتب

الشاعر المشهور . له كتاب المقامات وعلق عليه شرحاً موجزاً الشيخ محمد عبده

الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف ، وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصر نظمه عن شره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا : لا . قال : فهلوا إلى كلامه ، فهو بعيد الاشارات ، قريب العبارات ، قليل الاستعارات ، منقاد لعريان الكلام يستعمله ، تفور من معنائه مهملة ؛ فهل سمعتم له بكلمة غير مسموعة ؟ أو لفظة غير مصنوعة ؟

وأما احتساب قول البديع هذا في جانب الجاحظ ولا أحسبه عليه ، لأن هذا الوصف قل أن يضطلع به أديب ، أو ينهض به بليغ أريب . ولست أظن في البديع الجد في النيل من الجاحظ أو الإفتيات على مقامه في العلم والأدب ومنزلته في صنوف البلاغات ، وما أرى ذلك من البديع إلا من باب رياضة اللسان على قوة البيان . وإت كان لم يعد الحق في وصفه لشعره

ويقول القاضي الباقلاني<sup>(١)</sup> : قد يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السميت الذي لا يؤخذ فيه ، والباب الذي لا يذهب عنه ، وأنت تجد قوماً يرون كلامه قريباً ، ومفهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيقاً حتى يستعين بكلام

وكتاب الرسائل وعلق عليه شرحاً الشيخ ابراهيم الأحذب . وديوان شعر صغير . مات سنة ٣٩٨ هـ

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني البصرى . شيخ من شيوخ العلم والدين نشر بقوة بيانه وفصاحة لسانه وماضى حجته مذهب الأشعرية . وناظر بعض المعتزلة بحضرة عضد الدولة بن بويه الدبلى بشيراز ، ثم أرسله عضد الدولة إلى ملك الروم في مهم من شؤون الدولة فقام بسفارته خير قيام ، وكان له هالك شأن لفت إليه الأنظار وكان موضع الحفاوة والاكبار ، وله مؤلفات عدة أشهرها وأبقاها كتابه « إيجاز القرآن » توفي في ذى القعدة سنة ٣٩٨ هـ

غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ، وفصل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة ، وأما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة ، وألفاظ يسيرة ، فإذا أحوج إلى تطويل الكلام خالياً عن شيء يستعين به — فيخلط بقوله من قول غيره — كان كلاماً ككلام غيره . فإن أردت أن تحقق هذا فانظر في كتبه في « نظم القرآن » وفي « الرد على النصارى » وفي « خير الواحد » وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى ، هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح ؟ على أن متأخرى الكتاب قد نازعوه في طريقته ، وجاذبوه على منهجه ، فمنهم من ساواه حين ساماه ، ومنهم من أبرَّ عليه إذ باراه . هذا أبو الفضل بن العميد قد سلك مسلكه ، وأخذ طريقه فلم يقصر عنه ، ولعله قد بان تقدمه عليه لأنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكملها على شروط صنفته ، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعل في كتبه متى ذكر من كلامه سطرًا أتبعه من كلام الناس أوراقاً ، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً ؟

وعبارة الباقلاني كما ترى لا تدل على أنه لا يرى الجاحظ شيئاً وإنما هو بسبيل المقارنة بين كلام الله عز وجل وكلام المخلوقين ، وأي كلام يرتفع على كلام الله سبحانه وتعالى ؟ على أن الباقلاني قد روى عن الجاحظ قول غيره فيه دون أن ينبذه من لدنه بشيء ، إلا ما قاله عن بعض كتبه الخاصة بما هو معنى به من الكلام على نظم القرآن وإعجازه . وإلا فليس مثل القاضي الباقلاني من تحفى عليه مزايا الجاحظ وخصائصه التي بذت فيها من تقدمه وأتعب من جرى على أثره ممن تأخر عنه . على أن في تفضيل الباقلاني لابن

العميد في بعض ما هو من شأنه على الجاحظ ، مفخرة للجاحظ نفسه، واعترافاً  
بفضله، وتقديراً لبلاغته، لأن ابن العميد يعد من تلاميذ الجاحظ الذين تخرجوا  
بكتبه وترسموا خطاه في بيانه وقوة عارضته وبلغ أسلوبه . ولو كان كتاب  
الجاحظ في نظم القرآن بين أيدينا لعرفنا إلى أي مدى كانت استعانة  
الباقلاني به في تصنيفه « إيجاز القرآن » لأنه ما من أحد جاء بعد الجاحظ  
وحاول الكتابة أو التأليف إلا وكان أكثر مادته التي يعتمد عليها إنما هي  
كتب الجاحظ

